علم المخطوطات والتحقيق العلمي

الدكتور أحمد شوقي بنبين

جرت عادة العاملين في مجال التحقيق العلمي للتراث العربي ، أن يعتمدوا في هذا العمل العلمي على نسخة أو نسخ متعددة من المخطوط الواحد باعتبارها نسخاً نهائية تحتاج إلى شيء من التصحيح والتخريج والمقابلة لتصل بهم إلى النسخة الأصلية أو إلى صورة قريبة منها . والحقيقة أن هذه المخطوطات التي تم بالاعتماد عليها وبواسطتها عمل التحقيق ، وأن الطريقة أو الطرق التي اتبعت في تحقيق ذلك ليس من شأنها كما لا يمكنها أن تفضي إلى ما نتوخاه من هذا العمل من نتائج . ويرجع السبب في ذلك بالأساس إلى أن النسخ المعتمدة لم تخضع للبحث اللغوي (الفيلولوجي) الدقيق ، كما أنها لم تطبق في دراستها قواعد علم المخطوطات الحديث وأساليبه ، فما هو الدور الذي يقوم به علم المخطوطات (الكوديكولوجيا) في باب التحقيق العلمي ؟ هذا ما سيحاول الإجابة عنه هذا العرض بإيجاز .

إذا كان علم المخطوطات الحديث (الكوديكولوجيا) يبحث في تاريخ المكتبات ، وفي مصادر المخطوطات ،وفي الفهرسة وفي الوقفيات والتملكات ، وفي النسخ والنساخ وفي الجوانب المادية للمخطوط ، وفي كل ما هو خارج عن النص (Ex – Libris) ، فإن هذا العرض الوجيز لن يتناول من العناصر المكونة لهذا العلم إلا عنصرين يعدان أكثر ارتباطاً من

غيرهما بالتحقيق العلمي : أولهما البحث أو التفتيش عن المخطوطات ، ثانيهما أثر النسخ والنساخ في المخطوط العربي عبر تاريخه الطويل .

إن التفتيش عن المخطوطات وفهرستها وتأريخها والبحث في مظانها يعد المرحلة الاولى في الدراسة سواء لدى عالم المخطوطات الذي يهتم بالمخطوط كقطعة مادية ، أو بالنسبة للباحث اللغوي الذي يسعى إلى نقد نصّ المخطوط ونشره . والغاية العلمية من البحث عن المخطوطات هو جمع أكبر عدد ممكن من نسخ المخطوط الواحد تمكن الباحث اللغوي من وضع تاريخ لنصّ هذا المخطوط الذي أصبح السبيل العلمي الوحيد للوصول إلى نسخة المؤلف أو إلى صورة قريبة منها . ولقد دأب المحدثون من المهتمين بشؤون التراث العربي المخطوط أن يكتفوا في التحقيق بنسخة واحدة من الكتاب إذا لم يعرف غيرها ، أو بنسخ معدودة يعتمدون أقدمها أو أصحها ، ويحتفظون في الهوامش بالروايات المختلفة الموجودة في النسخ التي عدت ثانوية مع تخريج أبيات الشعر أو تكميلها وشرح الغريب من الالفاظ ، وترجمة الأعلام وغير ذلك مما نجد له أثراً عند القدماء في توثيق كتب سابقيهم وتحقيقها كما صنع مثلاً أبو عبيد البكري في كتاب **اللآلي في شرح أمالي القالي** ، أو كما نجد عند عبد القادر البغدادي في كتاب **خزانة الأدب** .

إن اعتماد نسخة واحدة في التحقيق شيء يرفضه الباحثون اللغويون اليوم فالأولى به أن يسمى تصحيحاً لأن النسخة الفريدة ليس من شأنها أن تخضع للأساليب الحديثة في نقد النصوص، وعلى قدر علمي فإن معظم النسخ الفريدة التي خضعت لهذا العمل العلمي في تراثنا العربي كثيراً ما كانت ناقصة أو ملأى بالأخطاء من حيث مستوى التراكيب أو الألفاظ أو الأعلام ، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه للنقد الحدسي

والتخمين في الإصلاح والتصحيح[1] . وفي حالة وجود عدة نسخ فإن مفهوم النسخة المعتمدة ومفهوم أقدم نسخة مفهومان غير واردين عند علماء (الفيلولوجيا) . إن النسخة الأم أو النسخة الأساس هي التي تمثل أقدم شكل للمخطوط بعد إخضاع نسخه المختلفة والمتعددة لعملية تاريخ النص(Historie Du texte) الذي يهدف إلى إعادة بناء وتركيب النسخة الأصلية . أما مفهوم « أقدم نصّ » أو « أقدم نسخة » وهو شعار كثير التداول عند دعاة التحقيق فإنه لا اعتبار له فيلولوجيا ، فكم من نسخة حديثة أقوم وأقل خطأ من النسخة العتيقة ، إما لأنها سليلة أسرة قديمة ، أو لأنها نسخت عن نسخة أكثر قدما وأقرب إلى النسخة الأصلية .

وإذا جاز لنا أن نتحدث عن مفهوم « أقدم نصّ » فباعتباره إحدى النسخ التي تساعد على تسهيل مهمة المحقق في الوصول إلى النسخة الأم(authentic) التي ليست نسخة المؤلف ، ولكنها المنطلق لما بقي محفوظاً ومتداولاً من نسخ المخطوط . إن الاعتماد إذن على نسخة واحدة أو عدة نسخ لم يعد مقبولا علميا وعمليا في عملية نقد النص مهما كانت الطرق والمناهج المطبقة في التناول . كما أنه لا ينبغي أن تمارس التحقيق العلمي بالطرق السالفة الذكر بدعوى قلة نسخ المخطوط الواحد أو عدم وجودها ، بل يجب التفتيش عن المخطوطات وتجميعها وفهرستها لتتم

---

(١) **طوق الحمامة** لابن حزم الذي توجد منه نسخة فريدة في خزانة جامعة ليدن بهولندة هي نسخة ناقصة ، لأن إحالات ابن حزم عليها في مؤلفاته الأخرى إحالات غير موجودة في نسخة هولندة . كذلك إحالات العلماء عليها بعد ابن حزم إحالات لانعثر عليها في هذه النسخة اليتيمة . وكذلك قل في النسخة الفريدة لكتاب **الانتصار** لأبي الحسين بن الخياط والمحفوظة بدار الكتب بالقاهرة ، إنها ملأى بالأخطاء ولا ينبغي اعتمادها في التحقيق .

الاستفادة منها في هذه العملية . ولايعني وجود نسخ فريدة وانعدام أخريات لنفس المخطوط .

إن ما جُمع حتى الآن وفهرس من المخطوطات العربية يقدره المختصون بثلاثة ملايين ، وإن ما هو غير مفهرس وما لم يكتشف بعد بل لا يزال رهين محابس المكتبات العامة والخاصة يفوق ما هو معروف ومفهرس ، ولا أدل على ذلك مما يكتشف من مخطوطات وما يصدر من فهارس المخطوطات من حين لآخر . فاعتباراً لهذه الاكتشافات التي تكاد تكون يومية فإننا لا نعدو الحقيقة إذا اعتقدنا أنه ليس مقبولا ولا معقولا ألا يبقى من الكتاب المخطوط سوى بعض نسخه ، على الرغم من تناقله ونسخه وتداوله على مرّ العصور في مختلف خزائن المدارس والجامعات والزوايا والمساجد التي تعد بالمئات ، وربما بالآلاف في أرجاء العالم الإسلامي الفسيح . إن التقصير الذي منيت به قضية البحث عن المخطوطات أدىّ إلى القصور في عملية تحقيق كتب التراث ، وإن عدم العثور على ما يكفي من نسخ المخطوط الواحد بعد التقصي والبحث في فهارس الخزائن لا يعني بالضروة فقدان هذه النسخ إلى الأبد بدعوى أن المكتبات الاسلامية خضعت لألوان من التخريب والسرقة والإهمال عبر التاريخ . إن ما تعرضت له خزائن أوربا من الإحراق وما أصابها من النهب والسرقة أكثر بكثير مما مُنيت به مكتباتنا العربية الاسلامية ، ومع ذلك فإن خزائن الغرب تعجّ بملايين المخطوطات ، وتزخر بمئات النسخ من المخطوط الواحد . ولا ينبغي أن يُعتقد أن الاجتياح الذي تعرض له التراث العربي على مرّ العصور هو السبب الوحيد في إتلاف الكثير من المخطوطات وفقدانها ، بل كان الاختلاف في الرأي وفي العقيدة والمذهب ، كما كان الاهمال كذلك من الأسباب التي كانت تدعو إلى فقدان الكتب وإخفائها

زمنا طويلا ثم لا تلبث أن تعود إلى الظهور ، بعدما تنتهي الدواعي وتزول الاسبـاب التي دعت إلى غيابها . ومن الأمثلة على هذه الظاهرة في تراثنا العربي ما يرويه ياقوت في **معجم الادباء**[٢] عن أبي حيان التوحيدي الذي يحكي بدوره عن أبي بكر الإخشيد الذي رغب في الحصول على كتاب مفقود للجاحظ هو : **الفرق بين النبي والمتنبي** ، فاستأجر مناديا ينادي في عرفات يسأل الناس عن هذا الكتاب ، وعلى الرغم من الحشد العظيم فإنه لم يعثر عليه ، واليوم يقول التوحيدي « فإنه لا تخلو خزانة من نسخة منه ، وقد رأيت أكثر من مائة نسخة . » ويروى أن ابن خلكان كان يشكو من عدم حصـــوله على أكثر كتب المعرّي ، بينا يشهد أحد المتـأخرين بوقوفه على معظم كتب أبي العلاء . كما قضى البيروني أكثر من اربعين سنة وهو يفتش عبثـا عن نسخـة من كتـاب ما ني **سفر الاسرار** إلى أن وفق أخيرا إلى الحصـول عليها[٣] . ويقول ابن رشد في **كشف مناهج الأدلة** : إنه أراد الوقوف على بعض كتب المعتزلة اسْتِجْلاءً لبعض المشكلات الفلسفية التي كان يعنى بها فلم يتمكن من الحصول عليها ، فهل فُقدت كتب المعتزلة منذ زمن ابن رشد (٥٩٥هـ) ؟ وهل يبدو معقولا أن يعجز رجل كابن رشد عن الحصول على تراث المعتزلة الذي يمثل قسمة من أهمّ قسمات تطورنا الفكري والحضـــاري لو لم تمتدّ إليه بعض الأيدي لإخفائه ثمانية قرون ؟ إن هذه الايدي التي امتدّت إلى تراث المعتزلة لم تكن غير أيدي المعتزلة أنفسهم ، « إن فرقة الزيدية (زيد بن علي بن الحسين) التي تعتقد مذهب المعتزلة

---

(٢) إرشــاد الأريب : ج٦ ، ص٧٢١ ، انظر كذلك : فرانز روزنتـال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي : ص٥٣

(٣) في المصدر نفسه ص٥١ نقلا عن رسالة البيروني في فهرست كتب الرازي : ص٣

أقامت لها دولة في اليمن فلما وقع الاضطهاد للمعتزلة على عهد العباسيين وشنّ خصومهم حملات الإبادة على كتبهم وآثارهم الفكرية أرسل واحد من أئمة الزيدية باليمن الرسل فجمعوا بقايا تراث المعتزلة من المواطن التي كانوا يعيشون فيها وجاؤوا إلى صنعاء بهذه الكنوز ، وهناك نُسخت وحُفظت في مكتبات صنعاء وخاصة مكتبة الجامع الكبير ، وهناك بقيت بعيدة عن أنظار الدنيا كلها لعدة قرون ، حتى إن كتاب بروكلمان : **تاريخ الأدب العربي** ، يخلو من أية إشارة إلى هذه المخطوطات . وظل الحال كذلك حتى الخمسينات من هذا القرن حين سافرت بعثة من جامعة القاهرة فاطلعت وصوّرت الكثير منها . ومنذ ذلك الوقت أمكن الوقوف على كتب للمعتزلة كتبها المعتزلة أنفسهم ، وليس خصومهم ، وأصبح باستطاعة الدارسين أن يعرفوا آراء المعتزلة من مصادرها لا من مصادر خصومهم »(٤) .

إن هذه الأمثلة تكفي لتنبيه المهتمين بشؤون التحقيق إلى أن ما يعتبرونه في حيز المفقود من المخطوطات قد يوجد الكثير منه محفوظاً في مختلف الخزانات إن التقصير في التفتيش عن المخطوطات جعل الكثير مما اعتُبر محققا من كتب التراث غير ذي قيمة ، بل اعتُبرت هذه الكتب وهذه الأعمال من حيث المستوى اللغوي مضيعة للوقت والجهد والمال بعد ما اكتشفت نسخ أخرى للكتاب المحقق ألزمت الباحث المحقق إلزاما بإعادة النظر في تحقيقه ، كما دعت الباحث الدارس إلى إعادة النظر فيما أصدره من أحكام ، وما استخلصه من نتائج اعتمادا على النسخة المحققة . وأقتصر في هذا المجال على مثالين يتعلقان بعالمين يعدان من كبار المحققين ومن المؤلفين القلائل الذين وضعوا تآليف في قواعد تحقيق النصوص : هذان العالمان هما

(٤) التراث في ضوء العقل ، محمد عمارة ، ص١٧٣

المرحوم عبد السلام هارون وصلاح الدين المنجد .

إن هارون حقق **كتاب** سيبويه واعتمد في عمله على نسخ أربع محفوظة كلها بدار الكتب بالقاهرة . إن هذه النسخ حسب هارون نفسه إما مجهولة الناسخ وعارية من تاريخ النسخ أو أنها حديثة العهد ، أو هي أوراق متناثرة ، الانتفاع بها جدّ عسير ، ولاتصلح لغير الاستئناس ، ولو تقصّى شيخ المحققين البحث عن نسخ أخرى للكتاب لوجد ثلاث نسخ في مكتبات تركيا ورابعة بخزانة جامعة « برنستن » بالولايات المتحدة ، وجميعها أقدم وأوثق من تلكم التي اعتمدها في تحقيقة . وقد تجمع عند باحثة فرنسية في المركز الوطني للبحث الفرنسي بباريس امبير جنفييف (Imbert Genevieve) سبع وسبعون نسخة من كتاب سيبويه[٥] وهو عدد كاف لتحقيق الكتاب تحقيقا حسب الأساليب الحديثة في نقد النصوص ، وستتمكن هذه الباحثة من القيام بتاريخ نصّ الكتاب الذي سيعطي ولاشك نصّاً لمؤلّف سيبويه مخالفا لكل النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعتا درنبورغ الفرنسي ، وهارون المصري ، وسيضطر الباحثون في النحو العربي بعد صدور هذا العمل ونشره إلى تغيير موقفهم من كثير من آراء سيبويه النحوية . أما الأستاذ صلاح الدين المنجد فإنه قد حقق كتاب **اللغات في القرآن** المنسوب لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣هـ) معتمداً على نسخة واحدة محفوظة بالمكتبة الظاهرية بدمشق . وقد فات المحقق أن الكتاب طبع مرتين إحداهما بهامش تفسير الجلالين وثانيتهما بهامش كتاب

---

(٥) اكتشف فؤاد سيزكين ستاوستين نسخة من الكتاب (انظر تاريخ التراث العربي) واكتشفت الباحثة جنفييف (Genevieve) إحدى عشرة نسخة ــ واكتشفت أخيرا في إحدى زوايا المغرب الأقصى نسخة أخرى من كتاب سيبويه فأصبح العدد ثمانياً وسبعين نسخة .

التيسير في علم التفسير ، كما توجد للكتاب مخطوطتان محفوظتان في كلّ من خزانة شستربتي (Chester Beatty) بإيرلندة وخزانة أسعد بإصطنبول[٦] ولو قرأنا في ما نشر أخيراً من فهارس المخطوطات العربية في العالم لعثرنا بالتأكيد على نسخ أخرى من الكتابين السالفي الذكر ربما كانت كافية من حيث العدد لتمكّن المحقق من القيام بوضع تاريخ للنصّ . ومن محاولات المحدثين النادرة في مجال القيام بتاريخ النصّ في التراث العربي المخطوط تلكم التي قام بها كلّ من محمد بن تاويت الطنجي(ومحسن مهدي في تحقيق كلّ من **رحلة ابن خلدون . شرقاً وغرباً** ، وكتاب **ألف ليلة وليلة** . لقد بذل الرجلان الجهد في جمع أقصى عدد من نسخ الكتابين مكّنهما من وضع تاريخ نصّهما على الطريقة الحديثة ، وإذا ثبت لدى علماء الفيلولوجيا أن الوصول إلى نسخة تماثل شكل النسخة الأصلية شيء غير وارد فإن ابن تاويت قد وصل إلى النسخة[٧] الأم التي انبثقت عنها كل النسخ الموجودة . أما محسن مهدي فقد توصل إلى نموذج من ألف ليلة وليلة يختلف كلّ

(٦) التقصير في البحث عن المزيد من نسخ المخطوط الواحد كثيرا ما يلاحظ عند المهتمين بشؤون التحقيق ، بالاضافة إلى المثالين المذكورين آنفاً يمكن الاشارة إلى **المزهر في اللغة** للسيوطي الذي يبقى بحاجة إلى تحقيق علمي حديث . بعد طبعاته الثلاث بما فيها طبعة بولاق تولى تحقيقه ثلة من العلماء فاعتمدوا النسخ المطبوعة وأغفلوا نسخا خطية أخرى أشار إلى كثير منها بروكلمان في تاريخه كنسخ برلين ولندن وباريز ، والموصل ، ومانشستر والاسكوريال واصطنبول ودمشق وغيرها .

(٧) النسخة الأم هي أقدم شاهد على الشكل المحفوظ لنصّ المؤلف . وإذا وصل البحث إلى أشكال مختلفة من النص المخطوط فهذا يدلّ على نسخ أمهات عديدة . ودور الفيلولوجي الذي يريد أن ينشر نصا يقتصر أولا على إيجاد النسخة الأم لهذا النص (arch – type) .

الاختلاف عن النسخ المخطوطة والمطبوعة بما فيها طبعة بولاق[٨] .

إن البحث عن المخطوطات وتجميعها يعتبر المرحلة الاولى والعنصر الأساسي في عملية التحقيق العلمي . إن المختصر في علم المخطوطات – وليس المحقق وناقد النص – هو الرجل المؤهّل الموكول إليه إجراء التفتيش وذلك في إطار منظمة أو معهد أو مجمع أو أكاديمية توفر له الوسائل العادية لتحقيق ذلك . وإن المحاولة التي يقوم بها بالتعاون كل من المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية ومعهد المخطوطات العربية لجمع المخطوطات والحصول على فهارسها ونشرها[٩] لتُعتبر لبنة من اللبنات التي سيقوم عليها صرح التحقيق العلمي الصرف في البلاد العربية والاسلامية .

أما العنصر الثاني من عناصر علم المخطوطات الذي أخذت على نفسي دراسة أثره وعلاقته بالتحقيق فهو النسخ وتأثير النساخ في المخطوطات

(٨) يذكرنا عمل محسن مهدي بعمل الفيلسوف والفيلولوجي الألماني كارل لخمان (K.lakhman 1851) الذي كان من واضعي قواعد تاريخ النصوص تلكم القواعد التي طبقها في دراسته لكتاب الشاعر اللاتيني لوكريس (Lucréce) 55ق. م في الطبعة (De Rerum Nature) فخرج بنص يختلف كلّ الاختلاف عن كل النسخ المخطوطة والمطبوعة .

أما فيما يتصل بالقدماء من العرب المسلمين فيمكن اعتبار محاولة اليونيني في تحقيق روايات البخاري نموذجاً لتاريخ النصّ وإن لم يتوفر الرجل على الأساليب التي استحدثها مؤرخو النصوص المحدثون وتجدر الإشارة إلى أن محاولة اليونيني هذه هي الغاية التي تهدف إليها مدرسة الفيلولوجيين المحدثين في ألمانيا التي توجه أبحاثها في الروايات المختلفة للخبر الواحد في كتب التراث العربي .

(٩) يقتصر العمل على :

– حصر فهارس المخطوطات

– الحصول عليها بالشراء أو التصوير

– اشتراك المجمع والمعهد في نشر الفهرس الشامل للمخطوطات بعد إعداده .

العربيـة في مختلف الأماكن والبلدان . إن تناقل المخطوطات ونسخها عبر العصور دعا إلى الكثير من الإضافات والحذف والتغيير والتبديل الذي شوه النصـوص أحيـانا وغيّرها تغييرا كاملاً أحيانا أخرى ،وهذا ما جعل القيام بتاريخ النصوص ضربة لازب ومرحلة أساسية في عملية نقد النصوص(١٠) ، وسـوف أعالج هذه القضية من خلال نصّ من كتاب **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع** للقاضي عياض . يقول المؤلف عن النسخ : فليقابل نسخته من الأصل بنفسه حرفا حرفا حتى يكون على ثقة ويقين من معارضتها ومطابقتها له ولاينخدع في الاعتماد على نَسْخ الثقة العارف دون مقابلة . نعم ولا ينخدع في الاعتماد نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحّح ، فإن الفكر يذهب ، والقلبَ يسهو ، والنظر يزيغ والقلم يطغى »(١١)

إذا كانت عملية المقابلة أساسية في هذا النص فإنه يمكن استخلاص ظواهر أخرى تتعلق بالنسخ وبالنـاسخ كذلك . فالمقـابلة حرفا حرفا كما يدعو إليها المؤلف والتي هي عملية أساسية في عمل الناسخ توحي لنا بأن المعاينة طريقة شـائعة في النسخ العربي بالإضـافة إلى المشافهة حيث يملي الشيخ ويكتب عنـه الطلبـة أو يملي قارئ ويكتب عنه الناسخ . وتأكيد المؤلف على القراءة حرفا حرفا زيادة في التحري حتى لايُخطئ ، إن التحليل النفـسـي لعـمـليـة النسـخ دعـا أحد علـمـاء اللغـة دي روسـو

(١٠) ظهر تاريخ النصوص لما شعر العلماء بأن النصوص القديمة التي يقرؤونها ليست هي النصوص التي تركها مؤلفوها والتي تعرضت مع الايام لتغييرات واضافات كثيرة . ظهر هذا العـلم عنـد لخمـان ومنافسيه وعلى الأخص في الاعمـال التي خصّ بها لخمـان (Lakhman) الأنجيل ومؤلفات الشاعر لوكريس (Lucrèce) وبالأخص منها كتاب الطبيعة ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك . ويعتبر الالمان أسياد علم الفيلولوجيا من القرن 19م بحكم تعدد الجامعات وجلب العلماء نتيجة السياسة اللامركزية السائدة آنذاك .

(١١) **الالماع** :القاضي عياض ص159

(Desrousseaux) إلى تمييز أربع خطوات في فعل الناسخ المعاين تحدث في نفسِ الوقت ، ولابد أن توقع ممارسها في الخطأ :

١ — قراءة النص

٢ — حفظ النص

٣ — الإملاء الداخلي

٤ — تنفيذ عملية الكتابة[١٢]

هذه هي الآلية النفسية لعمل الناسخ وهو الذي يفسّر أو يعلّل أخطاء النسخ التي يحدث معظمها أثناء المرحلة أو الخطوة الثالثة التي هي الإملاء الداخلي . وبالإضافة إلى ذلك فإن طب العيون الحديث قد أثبت أن القارئ لا يقرأ إلا جزءاً من الكلمة ويكمل قراءته بالحدس والتخمين ، ومن هنا إلحاح القاضي عياض على قراءة الكلمات حرفا حرفا . ثم يقول : « ولاينخدع في الاعتماد على نسخ الثقة العارف » بمعنى أن الناسخ الثقة ذا النية الحسنة يمكن أن يقع في الخطأ . ومهما كان حرصه على تجنب الخطأ ودعاؤه لنفسه إلى خاتمة الكتاب بعفو الله[١٣] وحسن الخاتمة فإنه يُخطئ ويحرّف بدون قصد ، لهذا وجب الاحتياط كيفما كانت طبيعة الناسخ ومهما كان مصدر النسخة . وبالإضافة إلى هذا الحذر يجب التحقق من تاريخ النَّسخ إذا كانت النسخة المنقول منها مؤرخة[١٤] . ولايغتر الناسخ بالتواريخ المثبتة على ظهر المخطوطات ، فكم من مخطوط مؤرّخ تأريخا قديما

(١٢) Alphorse Dain: Les Manuscrits. P. 41: ed le Bells lettre 1975.

(١٣) ظاهرة معروفة في أوربا في العصر الوسيط . كان الرهبان ينسخون بحذر وإخلاص رجاء ثواب الله والتكفير عن ذنوبهم .

(١٤) كثيرة هي المخطوطات غير المؤرخة والمحفوظة في الخزانات العالمية . ومن بين مهمات الكوديكولوجي تأريخ النُّسخ غير المؤرخة ، وبالتالي وضع فهارس للمخطوطات التي ثبت تأريخها علميا . وهذه عمليات لا تزال تفتقر إليها مخطوطاتنا العربية .

وهو منسوخ حديثا . في مثل هذه الحالات يصبح البحث في العناصر « البـاليوغرافيـة » « والكوديكولوجيـة » للمخطوط كالخط والورق وغيرها شيئا ضروريا وحتى قدم الورق لايكون بالضرورة دليلا على قدم المخطوط في الزمن . يحكي ياقوت الرومي أن ابن البواب تولى مكتبة بهاء الدولة في شيراز ، وفي أحد الأيام صادف بين كومة من الكتب نُحيت جانبا كتابا مجلدا بلون أسود تبيّن أنه جزء من القرآن في ثلاثين مجلدا مكتوبٌ بخط ابن مقلة ، وأن هذا أثار أقصى إعجابه ، وقد نجم عن البحث في المكتبة العثور على تسعة وعشرين مجلدا .. وبقي أحد المجلدات مفقودا ، وعندما أُنهي الأمر إلى علم بهاء الدولة أمر بإتمام الكتاب ، وعرض على ابن البواب أن يكتب المجلد المفقود بشرط أن يتلقى ثوب الشرف ومائة دينار إذا تبيّن تعذر التمييز بين المجلد المكتوب حديثا وباقي المجلدات . وقد قبلت هذه الشروط ، وبحث ابن البواب في المكتبة عن ورق قديم شبيه بورق المجلدات الباقية ، وكتب المجلد المفقود بطلاء الذهب بعد تعتيقه . ثم جلده مستعملا غلافاً مأخوذاً من كتاب آخر . وعندما تذكر بهاء الدولة الامر بعد سنة . جلبت له النسخ الثلاثون . وفحصها بدقة دون أن يستطيع اكتشاف النسخة المكتوبة حديثا ، فاحتفظ بها جميعا على أنها أعمال ابن مقلة[١٥] . ويروي ياقوت كذلك بأن خطاطا من القرن السابع الهجري اشترى صفحة من خط ابن البواب بأربعين درهما نسخها على ورق قديم وأعطى النسخة إلى

(١٥) تفيد القصة بأن كتابة ابن البواب لم تكن بعيدة عن كتابة ابن مقلة كما أن التزوير شيء ممكن . أما ابن البواب الذي قام بعملية النسخ فلم ينل المكافأة المتفق عليها ، ولكن أجيب طلبه بالحصول على كل الورق الصيني المقطوع في المكتبة والذي يكفي للبقاء عنده عدة سنوات : **إرشـاد الاريب** : المجلد ٦ ص٣٤ نقـلا عن **الكتـاب العربي** (« يوهنسـريـدرس » ص٨٨ في الطبعـة الانكـليزيـة وص١١٣ ــ ١١٤ من الترجمـة العربية) .

بائع الكتب الذي باعها بدوره بستين درهما على أنها خط ابن البواب(١٦) .

كثير من النساخ يقلدون النسخة المنقول منها تقليدا كاملاً حتى لا يميز بينهما كما رأينا في المثالين السابقين ، وذلك إظهار لمهارتهم وعبقريتهم ، وهذه الحالة من الاسباب التي دعت اليوسي إلى أن يقول في الملزمة الرابعة والعشرين من كتاب القانون « وما أحوج الناس إلى إقامة الحسبة على الناسخين »(١٧) .

ثم قال المؤلف : « ولا ينخدع في الاعتماد على نسخ نفسه بيده ما لم يقابل ويصحّح ، فإن الفكر يذهب والقلب يسهو والنظر يزيغ والقلم يطغى ... » يُفهم من هذه العبارات أن الناسخ مهما كانت طبيعته فإنه يكتب تحت تأثير نفسيته الخاصة وذوقه الشخصي وشخصيته الكاملة ، فلابد إذن للنصّ المنسوخ من أن يتأثر بهذا السلوك ، لأن نَسخَ النصوص وتناقلها على العموم هو قبل كل شيء عمل إنساني خاص ، وهذه الخاصية الانسانية هي التي ينبغي الكشف عنها في دراستنا لتراثنا العربي المخطوط . فذهاب الفكر وسهو القلب وكلال النظر وطغيان القلم ظواهر إنسانية تعتري الناسخ فيغيّر أو يحرف بدون أن يشعر . ودراسة النسخ المختلفة للمخطوط الواحد دراسة كوديكولوجية قد تؤدّي بالباحث الدارس إلى اكتشاف الأسباب التي دعت الناسخ إلى الوقوع في هذه الأخطاء . والنُّسخ الخطية التي من شأنها أن تساعد الباحث على اكتشاف هذه الأسباب هي النسخ التي نجت من التصحيح والإصلاح ، واحتفظت

(١٦) نفس المرجع ص١١٣ ـ ١١٤

(١٧) **القانون** لأبي علي الحسن اليوسي : الملزمة ٢٤ ص٤ (ط. حجرية) .

بالأخطاء التي بواسطتها يتمكّن مؤرخ النصوص من الوصول إلى أصل الخطأ أو مصدره . إن من بين الأخطاء التي يقع فيها محققو النصوص العربية هو اعتمادهم نسخة مصححة وتسميتهم لها بالنسخة الجيدة . إن مفهوم النسخة الجيدة مفهوم غير وارد في المعجم اللغوي (الفيلولوجي) . وإذا جاز لنا أن نتحدث عن النسخة الجيدة فهي النسخة التي احتفظت بالأخطاء وليس تلكم التي تمّ تصحيحها . إن هذه الأخيرة تضلّل المؤرخ للنصوص ، وربما تقبر إلى الأبد فكرة الوصول إلى النسخة الأم أو النمط الأعلى الذي انبثقت عنه باقي النسخ .

إن مشاكل النسخ والنساخ قديمة قدم هذا التراث . وقد شعر القدماء بخطورتها منذ بداية حركة التأليف فقاوموها بقدر الوسائل والأدوات المتوفرة لديهم . إن وجود إجازات النسخ المثبتة على ظهور المخطوطات على غرار إجازات الرواية والسماع ،وكذا وجود عبارات في الوقفيات تمنع نسخ المخطوط لدليل على الاحتياط الذي كان يتخذه القدماء إزاء النساخ . وهذا الاحتياط نفسه هو الذي دفع القدماء إلى ظاهرة الاستطراد التي تعجّ بها النصوص القديمة حيث كانوا يكتبون كلّ شيء في المتن ، لأن الحواشي وهي غير المتن تكون عرضة للحذف من قبل النساخ أو عرضة للإقحام ، وفي حال إقحامها في المتن يقع اضطراب في المخطوط[١٨] . إن آثار النسخ في تغيير وتحريف النصوص العربية أكثر من أن تعدّ ، وإن البحوث النظرية لا تفضي إلى نتائج ملموسة في هذا المجال ، وليس المحقق الطارئ هو الذي

---

(١٨) ابتداء من القرن الثامن الهجري شعر الناس بالحاجة إلى الحواشي والهوامش فكانوا عندما يضيفون أو يستطردون يميزون هذه الإضافة وهذا الاستطراد بقولهم : « تنبيه » ، « فائدة » ، « تعليق » ، « حاشية » ـ انظر : **مناهج العلماء المسلمين** :لفرانز روزنثال ص111 : ط 1980

يحل المشكلة ، ولكنه العالم بالمخطوطات المتعامل معها والمتمرّس بدراستها كالتفتيش عنها والبحث في مصادرها والمقابلة فيما بينها والقيام بدراسات مختلفة فيما يخص أدوات الكتابة والأدوات المكتوب عليها[١٩] ودراسة خطوطها وتأريخ ما لم يؤرّخ منها ثم وضع قوائم بالنساخ على غرار تلكم التي وضعت بالنسبة لنساخ المخطوطات الإغريقية واللاتينية[٢٠] ، ثم البحث في حياة النساخ وسلوكهم وإخضاعهم حسب الإمكان لما يسمى عند المحدثين بنظرية الجرح والتعديل للتأكد مما ينسخون . إن مثل هذه البحوث والدراسات يفتقر إليها تراثنا العربي ومفروض القيام بها عمليا قبل الاهتمام بعملية التحقق العلمي . لقد أصبح ضربة لازب في العالم العربي التفكيرُ في إنشاء معهد لدراسة وتدريس علم المخطوطات أو الكوديكولوجيا (Codicologie) وتكوين مختصين في هذا العلم قادرين على الاهتمام والعناية بأضخم تراث مخطوط عرفه تاريخ الانسان . إن الأعمال العلمية والتقنية التي سيقوم بها علماء الكوديكلولوجيا في مجال المخطوط العربي ستفيد الباحثين المهتمين بالتحقيق أيما إفادة ، وإنّ النتائج التي سيفضي إليها هذا النوع من البحث من شأنها أن تعطي وجها آخر للنصوص التي اعتُمدت حتى الآن في استخلاص النتائج وإصدار الأحكام .

---

(١٩) التحليل الفيزيائي والكيميائي للوعاء وللمواد (وهي تقنيات مستعارة من علوم الفيزياء) دراسة علامات الكاغد أو الفيليغران (Filigranes) ويعبر عنها بالترديوغرافيا (Bitrudiographie) والهولوغرافيا (Holographie) لمقارنة الخطوط . الخ ...

(٢٠) وضع فوجل Vogel عام 1901م لائحة بالنساخ الإغريق تفصل القول في كلّ ناسخ وفي كلّ ما نسخه من مخطوطات . كما وضع J.W.Bradley لائحة بالنساخ اللاتين عام عام 1887م .